التعليم الالزامى في مصر

للأستاذ أبي خلدون ساطع الحصري

مدير دار الآثار العراقية

قرأت في مجلة مصرية مقالة لأحد الأساتذة ، يقول فيها : «إن تقارير مفتشي التعليم ومراقبيه» أظهرت في السنين الأخيرة شيئاً جديداً لم يكن ملحوظاً من قبل ، وهو أن الأولاد الذين يمارسون الزراعة في الحقل أو الصناعة في المعمل أو التجارة في السوق من متخرجي المدارس الاثرامية ، لا تكاد تمضي عليهم أربع سنوات أو خمس ، حتى ينسوا القراءة والكتابة ، وتمحى من ذاكرتهم البقية الباقية من الحروف الأبجدية ، فيعودون بذلك إلى الأمية مرة أخرى ... »

إنني لم أطلع على نصوص التقارير التي يشير إليها صاحب المقال ، فلا أعرف تفاصيل ما لاحظه المفتشون في هذا الباب . ومع ذلك لم أجد في هذه النتيجة شيئاً يستوجب الاستغراب ؛ نظراً إلى ما أعرفه عن الظروف المحيطة بالتعليم الالزامي في مصر من جهة ، وعن التجارب التي مرت على الأمم الغربية في هذه القضية من جهة أخرى ...

إنني لا أشارك المحرر في الأسباب التي يعزو إليها هذه النتيجة ، كما لا أوافقه على الوسائل التي يقترحها لمعالجة القضية . ومع هذا لا أرى لزوماً لمناقشة الآراء الواردة في المقال المشار إليه ، بل أفضل أن أبحث عن القضية من « أساسها » ، بقطع النظر عن آراء المحرر فيها

— ١ —

يظن الكثيرون أن « تعليم القراءة من الأمور البسيطة » التي يستطيع أن يقوم بها كل من « يعرف القراءة والكتابة » وبالأحرى كل من يعلم شيئاً من « مبادئ أصول التدريس » . في حين أن هذا التعليم من الأعمال الدقيقة المحفوفة بالمزالق الكثيرة التي لا يمكن تجنبها إلا بيقظة متواصلة وتمرين خاص .. لأن « تعليم القراءة » لا يعني « تعويد الطالب على قراءة بعض الكتب المبينة » ، بل يعني « إكساب الطالب مقدرة على قراءة أي كتاب كان »

ومع هذا، فكثيراً ما نجد أن المعلمين لا يقدرون خطورة هذا المبدأ حق التقدير ؛ فيوجهون جهودهم إلى تعليم القراءة من الكتب المدرسية المخصصة لهذا الغرض ، دون أن يعرنوا الطلاب على القراءة السريعة بوجه عام

في حين أن الطلاب كثيراً ما يتعلمون قراءة تلك الكتب على طريقة الاستظهار، دون أن يجهدوا أنظارهم وأذهانهم في تتبع الكلمات المطبوعة في سطورها . وكثيراً ما ينخدع المعلمون بسرعة هذه القراءة ، فلا ينتبهون إلى أن الطالب قد قرأ معظم ما قرأه عن ظهر الغيب ، دون ملاحظة الكتاب . وهذه الحالة تتفشى بوجه خاص ، عند ما يكون الصف مزدحماً بالطلاب ، وعند ما يتمشى المعلم في تدريسه على طريقة ميكانيكية ، لا نصيب فيها لليقظة والاهتمام . يقرأ المعلم العبارة بنفسه بصوت جهوري ، ثم يطلب قراءتها من أحد الطلاب ، ثم من ثان ، فثالث ، فرابع ؛ ويكرر هذه العملية عشرات المرات .. وكثيراً ما تنصرف أنظار القسم الأعظم من سائر الطلاب — خلال هذه القراءة والتكرار — عن أسطر الكتاب إلى أشياء أخرى ؛ غير أن آذانهم تبقى مستهدفة لتأثير الألفاظ التي يلفظها المعلم ويكررها سائر الطلاب ، بطبيعة الحال . وإذا ما تكررت قراءة العبارات عدة مرات ، يكون هؤلاء الطلاب قد حفظوا الشيء الكثير منها عن طريق السمع ؛ وإذا ما جاء دورهم في القراءة ، أخذوا يقرأونها « قراءة ظاهرية » تكون حصة النظر فيها محدودة جدا ، ويكون العامل الأصلي في سرعتها هو الحافظة السمعية وحدها ..

ولذلك كثيراً ما نرى بعض الطلاب « يقرأون دون أن ينظروا » ؛ وإذا ما طلب إليهم أن يبدأوا القراءة من محل غير المحل المعتاد ، يضطرون إلى التهجي ، فيقرأون بتلعثم وتردد وبطء ؛ غير أنهم إذا ما تمكنوا من قراءة الكلمة الأولى بعد هذا الجهد ، فتذكروا الكلمة التي تليها ، أخذوا يستعينون بذاكرتهم السمعية ، فصاروا يقرأون ما بعدها بسرعة واسترسال ... وكثيرا ما لا ينتبه المعلمون إلى « حقيقة الأمر » في هذه القراءة الظاهرية وينخدعون بهذه السرعة ، ويظنون أنهم نجحوا في تعليم القراءة ..

شاهدت هـذه الحالة فى عدد غير قليل من المدارس فى دروس مئات من المعلمين ، وما أعرفه عن مدارس التعليم الالزامى فى مصر يخولنى حق الجزم بأن هذه الحالة ليست من الأمور النادرة هناك أيضاً ...

وعندما تكون طريقة تدريس القراءة مشوبة بهذه الصورة بنواقص وشوائب كثيرة ، فلا حاجة للبيان بأن عدداً غير قليل من الطلاب عندما ينتهون من الدراسة الالزامية ، لا يكونون قد تعلموا القراءة بكل معنى الكلمة ، بل يكونون قد تعلموا قراءة بعض الكتب قراءة ميكانيكية ، لم تخرج من دور التهجى والتردد إلا بإعانة الذاكرة السمعية ... فهل من مجال للاستغراب إذا ما فقد هؤلاء خلال بضع سنوات ما كانوا قد اكتسبوه من المقدرة السطحية فى القراءة الميكانيكية فعادوا إلى الأمية بصورة تدريجية ؟

فإذا أردنا أن ننجو من هذه المزلقة الأليمة ، يجب علينا أن نهتم باصلاح طرق تعليم القراءة ، ونسعى إلى حمل الطلاب على قراءة كتب متنوعة ، فنتجنب كل ما من شأنه أن يجعل القراءة ميكانيكية وظاهرية

— ٢ —

مع هذا يجب علىّ أن أصرح بأن كل ذلك أيضاً لا يضمن معالجة المشكلة التى نبحث عنها معالجة قطعية

لأن « مقدرة القراءة » فى حد ذاتها ليست من الأمور التى ترسخ فى النفس بمجرد اكتسابها ، بل هى من القابليات التى لا تعيش وتنمو إلا بالعمل والتكرار والمران .. إنها من القابليات التى تضعف وتتلاشى شيئاً فشيئاً عندما تبقى « عاطلة » ولا تجد مجالاً للعمل بصورة متصلة ...

إفرضوا أن طالباً مجتهداً ونبيهاً ، قد تعلم القراءة بصورة جيدة ، فأصبح قادراً على قراءة الكتب بصورة مرضية ... ثم تصوروا أن هذا الطالب ترك القراءة تماماً بعد خروجه من المدرسة ؛ فقد مضى عليه عدة سنوات دون أن يقرأ شيئاً ، ودون أن يجد فى بيئته دافعاً يدفعه إلى استعمال قابلية القراءة التى كان اكتسبها قبلاً . لاشك فى أن القابلية المبحوث عنها سوف لا تحافظ على قوتها مدة طويلة من الزمن ، بل ستكون عرضة للضعف بصورة تدريجية ... وسيزداد هذا الضعف على ممر السنين فيعود صاحبها إلى دور القراءة «بالتهجى» كالمبتدئين ؛ وإذا استمر الحال على هـذا المنوال مدة أخرى ، فسيفقد قابلية القراءة التى كان اكتسبها فى المدرسة ، وسيعود إلى الأمية مرة أخرى

وهـذا هو ما يحدث فى الحياة الاعتيادية . فى كثير من الأحيان ينتهى الطفل من التعليم الالزامى فيترك المدرسة ويذهب إلى الحقل أو المعمل ، للاشتغال مع والديه ... ولا يجد هناك فرصة لتغذية القابلية التى كان قد اكتسبها ، ولا يشعر بدافع يدفعه إلى قراءة شىء يحرك ويجدد تلك القابلية ، فينسى فى حياته الجديدة ، بصورة تدريجية كل ما كان اكتسبه فى حياته المدرسية ...

إن القول بأن « التعليم فى الصغر كالنقش فى الحجر » بصورة مطلقة ، لا يتفق مع الحقائق الراهنة : فان الدماغ ليس من نوع الأحجار الجامدة التى تحافظ على كل ما ينقش فيها ؛ والقابليات التى يكتسبها الدماغ لا تشبه النقوش التى تحفر على الحجر بوجه من الوجوه ؛ ولا سيما دماغ الطفل ، فانه يمتاز بمرونة كبيرة ، يكتسب بسرعة ، غير أنه قد يفقد أيضاً بسرعة

هذه حقيقة هامة يجب أن نضعها نصب أعيننا عند ما نفكر فى أمر التعليم الالزامى ومكافحة الأمية : يجب علينا أن نهتم بتغذية قابلية القراءة وتقويتها — بعد المدرسة — بقدر ما نهتم بتوليدها وتنميتها فى المدرسة ... يجب علينا أن نتوسل بشتى الوسائل التى تدفع إلى القراءة — بعد الانتهاء من الدراسة الالزامية — خلال مزاولة أعمال الحياة الاعتيادية ...

وإلا ، فيجب علينا ألا نستغرب إذا ما وجدنا « قابلية القراءة » التى بذلنا كل تلك الجهود فى سبيلها قد أخذت تندثر وتتلاشى شيئاً فشيئاً ... و « الأمية » التى قضينا كل تلك الأوقات فى سبيل مكافحتها داخل المدرسة وفى سن الطفولة ، عادت إلى الحكم بعد مدة ، فاستولت على النفوس تدريجياً فى ساحة الحياة ، وفى سن الرشد والشباب ...

— ٣ —

إن تجارب الأمم الغربية — المسطورة فى تواريخ معارفها — تؤيد الملاحظات النظرية التى سردناها آنفاً ؛ فان رجال معارف

تلك الأمم أيضاً كانوا قد اصطدموا بالمشكلة التي بحثنا عنها، في بدء انكبابهم على تعميم التعليم ومكافحة الأمية ؛ وهم أيضاً كانوا قد لاحظوا — عندئذ — أن معظم الطلاب الذين يتخرجون من المدارس الابتدائية ويدخلون معترك الحياة ، ينسون بصورة تدريجية الكثير مما كانوا تعلموه في المدرسة خلال سني التعليم الالزامي . وكثيراً ما يصل بهم الأمر إلى درجة «نسيان الأبجدية» والعودة إلى الأمية

إن هذه النتيجة مَثَلت للعيان ، على وجه أخص ، عندما أخذوا يفحصون معلومات الراشدين الذين يبلغون السن العسكرية فيدخلون الثكنات ... فقد وجدوا بين هؤلاء الجنود عدداً غير قليل من الذ لا يستطيعون أن يقرأوا شيئاً بالرغم من أنهم تعلموا القراءة والكتابة — في طفولتهم — في المدارس التي داوموا فيها

ولذلك أخذوا يبذلون الجهود الكبيرة لمعالجة هذه المشكلة ، ويتوسلون بوسائل شتى لتوقي هذه النتيجة

وكان من جملة الوسائل التي توسلوا بها إحداث دروس ومدارس تجمع الراشدين أيام الأحد ، أو أحد ليالي الأسبوع طول السنة ، أو خلال بعض الأشهر منها بقصد « تكرار » و « ترسيخ » المعلومات التي كانوا اكتسبوها خلال دراستهم الابتدائية . . .

إن الألمان الذين كانوا أسبق أمم الغرب إلى تطبيق نظام التعليم الالزامي ، أحدثوا مثل هذه الدروس منذ القرن الثامن عشر ، وجعلوا المواظبة عليها من الأمور المحتمة على كل فرد ، منذ انتهائه من الدراسة الابتدائية حتى دخوله الخدمة العسكرية ...

إن كثيراً من الأمم الغربية حذت حذو الألمان في هذا الباب ، في القرن التاسع عشر ، وأحدثت مثل هذه الدروس والمدارس ، تحت أشكال وأسماء مختلفة . . .

في الواقع أن الحاجة إلى التوسل بمثل هذه الوسائل قد زالت من الغرب ، نظراً إلى انتشار القراءة والكتابة بين جميع الطبقات ، وازدياد حاجة الناس إليها في كل البيئات وفي جميع نواحي الحياة ، وانتشار الكتب التي تلذ الناس وتفيدهم مع ازدياد المكتبات التي أصبحت في متناول أيديهم . . . فان كل ذلك لم يدع — في البلاد الغربية — حاجة لإدامة الدروس والمدارس التي كانت تستهدف « التكرار » و « الترسيخ » . . . ولذلك حدث تطور عظيم في أهداف الدروس والمدارس الخاصة بالراشدين . غير أن الأهداف الحالية والتطورات الأخيرة يجب ألا تنسينا الغرض الأصلي الذي كان استوجب إحداث مثل هذه الدروس والمدارس . ويجب أن نلاحظ على الدوام أن تلك الدروس والمدارس لعبت دوراً هاماً في ضمان نجاح التعليم الالزامي ، ومكافحة الأمية في عهودها الأولى

* * *

إنني أعتقد أن الملاحظات الآنفة الذكر تكفي لاظهار أنواع الواجبات التي تترتب على وزارات المعارف التي تهتم بأمر التعليم الالزامي ومكافحة الأمية :

يجب عليها أن تسعى لتحسين طرق تدريس القراءة ، وتدريب المعلمين للقيام بأعباء هذا التدريس

كما يجب عليها أن تتخذ التدابير اللازمة لايجاد سلسلة كتب ونشرات ملائمة لحاجات الناس وميولهم ، على اختلاف مهنهم وبيئاتهم . . .

ويجب عليها أن تتوسل بوسائل متنوعة لنشر تلك الكتب بين الناس ، لتسهل تغذية رغبة المطالعة في نفوسهم ...

وأخيراً يجب عليها أن تتوسل ببعض الوسائل التي تضمن اجتماع الشبان في المدرسة من حين إلى حين — بعد انتهائهم من سني التعليم الالزامي — لإدامة علاقتهم بالدرس والمطالعة بصورة منتظمة . . .

وإذا لم تفعل ذلك يجب أن تعلم جيداً أن الجهود التي تبذلها والنفقات التي تنفقها في سبيل نشر التعليم في الأرياف وبين جميع طبقات الناس ، لا تثمر الثمرة الكافية ، ولا يبعد أن يذهب معظمها هباء منثوراً . . .

أنتهز هذه الفرصة لألفت أنظار وزارات المعارف في البلاد العربية — ولا سيما في مصر — إلى هذه الواجبات التي تترتب عليها لإتمام مهمتها في نشر التعليم ومكافحة الأمية بصورة فعلية

قلت : لاسيما في مصر ... لأنها المملكة العربية الوحيدة التي استطاعت أن تسن قانوناً للتعليم الالزامي ، وأن تضع خطة عملية لتنفيذ أحكام ذلك القانون ، وتحقيق نشر التعليم بين جميع طبقات الناس وفي جميع أنحاء البلاد . . . فعليها — قبل غيرها — يترتب واجب الاسراع في اتخاذ التدابير التي سردناها آنفاً . . .

(بغداد) ساطع الحصري